الفصل الثاني

القدس... قيمتها وموقعها في الحضارة الإسلامية

رضوى عبد القادر

القدس هي القلب الفلسطيني، الذي هو القلب العربي ـ الإسلامي؛ لذا سكنت في القدس أهم الحضارات، التي شهد لها العالم أجمع بالمجد، والتميُّز، وقد بدأت بالحضارة الكنعانية، تلتها الحضارة الإسلامية، التي استمرت زُهاء ثلاثة عشر قرنًا متصلة، عدا قرن واحد، كان من نصيب احتلال الفرنجة.

الدائرة الحضارية الإسلامية

مصطلح «الدائرة الحضارية» يدل على «حضارة نشأت، وازدهرت في رقعة من الأرض، يسكنها أقوام، وملل، وشعوب، وقبائل، وأمم شاركوا في إقامتها، وانتموا إليها بثقافاتهم المحلية، والقطرية». وهذا المصطلح متصل بالثقافة، والحضارة، والعمران، وهو يتضمن عنصرًا جغرافيًّا، يمثل المكان، وآخر بشريًّا سكانيًّا، يضم المقيمين في المكان، وثالثًا، تراثيًّا ثقافيًّا، حضاريًّا، عمرانيًّا، تحكمه رؤية كونية، يوفرها الدين ، في غالب الأحيان، والفلسفة الوضعية، حينًا، كما في العلمانية الغربية. ويشير الواقع الحضاري في عالمنا إلى أن دائرة الحضارة الغربية ـ الإسلامية هي واحدة من ثماني دوائر حضارية والحضارات السبع الأخرى هي: «الغربية، بفرعيها، الأوروبي، والأمريكي الشمالي، والأمريكية الجنوبية ؛ والصينية الكنفوشيوسية، واليابانية؛ والهندوكية ؛ والأرثوذكسية السلافية؛ والأفريقية – والحلقة المركزية في دائرة الحضارة الإسلامية، هي جزء من الوطن العربي، في جناحه الشرقي، وفلسطين والقدس في بؤرته، وتشغل هذه الدائرة قلب قارات آسيا، وأفريقيا، وأوروبا، والعالم القديم، وتجاوز خمسًا من الدوائر الحضارية الأخرى»[1].

لعل من أخطر حقائق واقع دائرة الحضارة الإسلامية أنها تعاني، منذ أكثر من قرن، من غزوة صهيونية استعمارية استيطانية، استهدفت قلب الوطن العربي، وقامت الدول الاستعمارية الأوروبية، وبخاصة بريطانيا، بدعم هذه الغزوة، لتمكين سيطرتها على المنطقة، وفلسطين هي عين القلب من العالم الإسلامي، دينيًّا أولًا، ثم جغرافيًّا. وتهديد الخطر الصهيوني لا يقتصر على العالم العربي، وحده، إنما يمتد إلى العالم الإسلامي[٢].

لمعرفة وقائع هذه الحضارة الإسلامية، خاصة في القدس، لا بد من المرور على الفتح الإسلامي لها، وتتابع العصور الإسلامية عليها، وإنجازات كلٍّ منها.

الفتح الإسلامي للقدس

توجهت خيول الفتح الإسلامي نحو بلاد الشام، منذ عهد الصديق، رضي الله عنه، ولكن فتح مدينة القدس تم على يدي الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عام ١٧هـ/ ٦٣٨م. وقد قدم إلى المدينة لاستلام مفاتيحها، من بطريركها صفرانيوس، راكبًا على بعير أحمر، عليه غرارتان، في إحداهما سويق، وفي الأخرى تمر، وبين يديه قربة مملوءة بالماء، وخلفه حفنة للزاد. وكان معه ثلة من الصحابة الأجلاء، منهم الزبير، وعبادة بن الصامت، وأثناء مسيره كان يتناوب ركوب البعير مع خادمه، وعندما بلغوا سور القدس، كان دور الركوب لخادمه، فلما رآه المحاصرون من النصارى، أخذوا بمقود الراحلة، وغلامه فوقها، أكبروه، وبكى بطريركهم صفرانيوس، وقال: «إن دولتكم باقية على الدهر، فدولة الظلم ساعة، ودولة العدل إلى قيام الساعة». ولما تسلم ابن الخطاب مفاتيح المدينة، كتب للنصارى أمانًا، وهو المشهور بـ «العهدة العمرية»، وقد أمَّنهم فيها على أموالهم، وكنائسهم، وصلبانهم، وكان من شروط النصارى، فى الأمان، ألا يسكن اليهود مدينة القدس. وبقيت القدس تحت الحكم الإسلامي، منذ الفتح العمري (١٧هـ)، وحتى اجتزأ اليهود قسمًا منها، عام ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨م، ثم احتلوا ما تبقى منها، عام ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م[٣].

بعد الفتح، أزال عمر بن الخطاب، بيده، ما تراكم على الصخرة من قاذورات، حيث وجد عليها زبلًا كثيرًا، مما طرحته الروم، غيظًا لبني إسرائيل، فبسط ابن الخطاب رداءه، وجعل يكنس ذلك الزبل، وجعل المسلمون يكنسون معه الزبل. وهنا كانت صخرة بيت المقدس. ومضى نحو محراب داود، فصلى فيه، ثم قرأ سورة ص، وسجد[٤]. وتتبع المسلمون مساجد الأنبياء، واحدًا واحدًا، ابتداءً من إبراهيم، فأعادوا بناءها، وحافظوا على قدسيتها، وطهَّروها، تطهيرًا. وبدأ اليهود، بعد الفتح الإسلامي، يعودون إلى المدينة؛ للزيارة. ثم العمل، والسكن، والعبادة[٥].

لم يفرّق المسلمون، زمن حكامهم الورعين، بين أصحاب الديانات السماوية الثلاث، انطلاقًا من عدم تفريقهم بين أنبياء الله. وصارت لهم ذمة تُرعى، وعهد يُحفظ، وقامت في بيت المقدس حضارة روحانية فذَّة، وتلاصقت المساجد، والكنائس، والمعابد، وغلب على المدينة، بعد الفتح الإسلامي، اسم «بيت المقدس»، أو «البيت المقدس»[٦].

مكانة القدس في الإسلام

تتمتع مدينة القدس بمكانة جليلة وعظيمة، في الإسلام، وفي نفوس المسلمين، فهي المدينة المقدسة الثالثة، بعد مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وهي[٧]:

ـ مسرى النبي الكريم، ومنها عُرج به إلى السماوات العُلا، لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١).

ـ محضن المسجد الأقصى المبارك، الذي شُرع شد الرحال إليه، مع المسجد الحرام، والمسجد النبوي، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى». (ثالث الحرمين). وعن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة، والصلاة في مسجدي بألف صلاة، والصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة». وعن الإمام أحمد، عن ميمونة بنت سعد، قالت: يا نبي الله أفتنا في بيت المقدس؟ فقال لها: أرض المنشر والمحشر، ائتوه فصلوا فيه، فإن صلاتكم فيه كألف صلاة. قالت: أرأيت من لم يطق أن يتحمل إليه أو يأتيه؟ قال: فليهد إليه زيتًا يُسرج فيه، فإنه من أهدى كان كمن صلى». وقد أشار شيخ من شيوخ الأزهر جليل، في ستينيات القرن العشرين، إلى الخلاف الواقع بين الروايات، في مقدار فضل الصلاة، في المسجد الأقصى، بأنه «لا يؤثر على جوهر الموضوع. فليس من الضروري معرفة المسلم لمقدار الثواب الذي يناله، بسبب الصلاة فيه، فإن مرده إلى الله سبحانه»[٨].

ـ أُولى القبلتين، حيث ظل المسلمون يُصلُّون إليه ستة عشر، أو سبعة عشر شهرًا، بعد الهجرة، إيحاءً باستمرارية الرسالة، ولاختبار مدى الاستجابة لها، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾[٩] (البقرة: ١٤٣).

ـ موطن الطائفة القائمة على الحق، فقد روى الإمام أحمد عن أبي أمامة، قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم، إلا ما أصابهم من لأوائهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك، قالوا: يا رسول الله، وأين هم؟ قال: ببيت المقدس، وأكناف بيت المقدس».

ـ أرض مقدسة، طاهرة، مباركة، بنص القرآن الكريم، لقوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ (المائدة: ٢١)، ولقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ٧١).

ـ موطن الأنبياء عليهم السلام، ومهبط الوحي عليهم، وفيها أمَّ محمد ﷺ الأنبياء، في الصلاة، ليلة الإسراء.

ـ الثغر الذي عدَّه المسلمون منفذ العدو إلى الكعبة المشرفة، وقبر رسول الله؛ ولذا ما إن استقر لهم الأمر، حتى بادر المسلمون إلى سد هذا الثغر، وحمايته، كي يدرأوا عنهم خطرًا مروّعًا.

ـ عاصمة فلسطين، ومتحف آثارها الدينية، التي تجمعت مدة ١٣ قرنًا، وصلة الوصل بين الأقطار العربية. أشار مفكر إسلامي معاصر إلى أن القدس في الوعي الإسلامي ثالثة المدن المقدسة، وفي السيرة النبوية هي منتهى مسرى الرسول ﷺ، ومبتدأ معراجه إلى السماء، حيث فُرض ركن الإسلام الأعظم ـ بعد الشهادتين ـ وعماد الدين (الصلاة)، والقدس في التاريخ الإسلامي المتصل، هي قبلة العلماء الصالحين، ومقصد الفقهاء والدارسين، ومهوى أفئدة الزهَّاد والصادقين، حتى قيل في شأنها: «إنه ليس في بلدان الدنيا بلد يحق لها أن تفاخر بما حوته من مقدسات، كمدينة بيت المقدس، فما فيها موضع شبر إلا صلى فيه نبيّ، أو قام فيه ملك، والقدس في الحضارة الإسلامية قطعة حيَّة من مآثرها، وصورة متكاملة لإنجازاتها العلمية، والتربوية، والمعمارية، والاقتصادية، يشهد لذلك السجل الغني في المكتبة العربية، وفي اللغات الأجنبية، لكتب تاريخها، وعمارتها، ومدارسها، ومعالم تطوّرها عبر العصور، وقد زاد

الله بيت المقدس شرفًا، إذ أنزل على رسوله، أثناء وجوده فيها (ليلة الإسراء)، قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (الزخرف: ٤٥). ولا شك أن نزول تلك الآية، في بيت المقدس، زاد قصة الإسراء جلالًا، وزاد المدينة المقدسة قيمة في الضمير الإسلامي[١٠].

كما أشير إلى فضائل بيت المقدس التي لا تحصى، ومنها: فضل الإسراء إليها، فلما أراد الله أن يعرج نبيه ﷺ إلى سمائه، جعل طريقه عليه إظهارًا لفضله، وليجمع له فضل البيتين، وشرفهما، وإلا فالطريق من البيت الحرام إلى السماء، كالطريق من بيت المقدس؛ وفي قوله تعالى: «والتين والزيتون». وقال عقبة بن عامر: التين «دمشق» والزيتون «بيت المقدس». وقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾، وهو سور بيت المقدس. ومن السُّنة أحاديث كثيرة، ذكرنا منها سابقًا، ومنها، أيضًا، عن عمران بن حصين، أنه قال: قلت يا رسول الله: ما أحسن المدينة! قال: كيف لو رأيت بيت المقدس؟ قلت: وهو أحسن؟ فقال ﷺ: «كيف لا يكون، وكل من فيه يُزار، ولا يزور، وتهدي إليه الأرواح، ولا يهدي الروح، ولا يهدي روح بيت المقدس، إلا أن الله أكرم المدينة، وطيَّبها بي». وقال كعب: لا تقوم الساعة حتى يزور البيت الحرام بيت المقدس، فينقادان إلى الجنة جميعًا، وفيهما أهليهما. والعرض والحساب ببيت المقدس.

قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى بقعة من بقع الجنة، فلينظر إلى بيت المقدس». وقال ابن جريج عن عطاء، إنه قال: «لا تقوم الساعة حتى يسوق الله خيار عباده إلى بيت المقدس، وإلى الأرض المقدسة، فيسكنهم الله إياها». وفي بيت المقدس، بشَّر الله زكريا بيحيى، وسخَّر الله تعالى لداود الجبال، والطير، وكان الأنبياء (عليهم السلام) يقربون القرابين، وأوتيت مريم (عليها السلام) فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، وولد عيسى (عليه السلام)، وتكلم في المهد صبيًّا، ورفعه الله إلى السماء منه، وأنزلت عليه المائدة، ويغلب يأجوج ومأجوج على الأرض كلها، غير بيت المقدس، وتزف الجنة يوم القيامة بيت المقدس، وينصب الصراط على جهنم بأرض بيت المقدس، وتوضع الموازين يوم القيامة ببيت المقدس. وقال سيدنا علي بن أبي طالب (كرَّم الله وجهه) «ليأتين زمان يقول أحدهم ليتني تبنة لبنة في بيت المقدس. وأحب الشام إلى الله بيت المقدس، وأحب جبالها إليه الصخرة»[١١]. وثمة حديث قدسي عن سيدنا محمد ﷺ، عن الله تعالى: «أنت جنتي، وقدسي، وصفوتي من بلادي، ومن سكنك فبرحمة مني، ومن خرج منك، فبسخط مني عليه»[١٢] صدق رسول الله، فيما بلغ عن رب العزة. وقد بشرنا الله بنصره، عندما ننتصر لدين الله، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧)، وبشَّرنا بفتح بيت المقدس، حيث قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ (الإسراء: ٩). وبشرنا الرسول الكريم بذلك في قوله: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، فيقول الشجر والحجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي، تعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»[١٣]. ولقد عمل الصهاينة بهذا الحديث، حين زرعوا في فلسطين المحتلة الكثير من الغرقد.

لذا فقد أثبتت مكانة القدس في كتاب الله، وسنة نبيه محمد ﷺ، بل في سيرة الصحابة، أيضًا، ولهذه المكانة والأهمية توالى الخلفاء عليها، متسارعين، أولوها رعايتهم، لترك بصمة لكل منهم، في بيت القداسة والطهر «بيت المقدس»، كلٌّ حسب ظروفه، وإمكاناته، فضلًا على كونها أهم المدن، التي تجمع بين الديانات السماوية الثلاث، من مساجد، وكنائس، ومعابد يهودية.

في عهد عمر

أول عمل قام به عمر، بعد فتحه بيت المقدس، أن زار كنيسة القيامة، والصخرة، التي راح يحفن التراب عنها، ومعه الصحابة (كما ذكرنا سابقًا)، وبرزت الصخرة، وأمر عمر بأن يبنى هناك المسجد الأقصى، وبعد أن انتهى عمر من زيارة هذين المكانين (القيامة، والصخرة)، راح يتجول في شوارع المدينة، ويغشى أسواقها، وكانت هذه لا تزال تئن من الخراب، الذي أحدثه الغزو الفارسي (٦١٤م)، فرأى بعين ثاقبة أن يبدأ بالتنظيم الإداري، والقضائي، أولًا، فلم يتوان. ففرض للمسلمين الفروض، وأعطى العطايا، ثم وضع التاريخ الهجري، ودوَّن الدواوين؛ وقسَّم البلاد إلى مناطق، وعيَّن لكل منطقة أميرًا، ثم رتَّب البريد، ليؤمِّن الاتصال بين هذه المناطق، وأقام العيون (الاستخبارات)، وعيَّن قاضيًا (مفتشًا)، يطوف على المأمورين، ويحقق الشكايات. وأسس ابن الخطاب «الحسبة»، وهو نظام يقابل ما يعرف اليوم بـ «البلدية»، ومن مهام هذه البلدية: تنظيف الشوارع، وجمع القمامة، ومراقبة الموازين، والمقاييس؛ وتنظيم الأسواق، والتجارة، والحراسة، فضلًا على الرفق بالحيوان، وأوكل ابن الخطاب أمر إدارة الحسبة الأولى إلى أحد قادته، وهو يزيد بن أبي سفيان، ولقَّبه بالمحتسب. كما هدم عمر البناء المحدث، في وسط السوق، وحظر على الناس الازدحام في الطرق، وحضهم على التجارة، قائلًا: «لا تلهكم الرياسة وحبها، ولا يغلبنكم الغرباء على التجارة، فإنها ثلث الإمارة». وأقام على بيت المقدس يزيد بن أبي سفيان، على أن يأتمر بأوامر أبي عبيدة، وانتدب للصلاة، من بعده، سلامة بن قيصر[١٤].

بجانب إعادة بناء المسجد الأقصى، تم في عهد عمر بناء المآذن، والأروقة، والمساطب، والصهاريج، وأقيم في صحن الصخرة، وبجوارها قبَّة المعراج، ومحراب النبي، وقبر يوسف، وقبة سليمان، وقبَّة الخضر، ومحراب داود، وذلك ضمن تتبع المسلمين لمساجد الأنبياء، ابتداءً من إبراهيم (عليه السلام)[١٥].

في عهد الأمويين

ضُمت القدس إلى الشام (٢١هـ/ ٦٤١م)، وخضعت لحكم معاوية بن أبي سفيان، مؤسس الدولة الأموية، فأقام عليها سلامة بن قيصر، وكان للقدس، يومئذٍ، سور، عليه ٨٤ برجًا، وله ٦ أبواب، ثلاثة منها فقط يدخل الناس منها، ويخرجون. وكان فيها مسجد مربع الأضلاع، بُني من حجارة، وأعمدة ضخمة، نقلت من الأطلال المجاورة، وهو يتسع لثلاثة آلاف من المصلين (المعتقد أن هذا هو المسجد الذي بناه عمر بن الخطاب) وكان أهل بيت المقدس يومئذٍ يأتون بالأخشاب التي يحتاجون إليها، من أجل البناء والوقود[١٦].

لقد بُذلت جهود مكثفة، خلال العهد الأموي، لإعادة بناء مدينة القدس، كان أولها في عهد معاوية، عندما زار المدينة، وصلى في مسجدها (٦٤١م)، لكن البناء الحقيقي، والتغيير الجذري لمعالم المدينة كان في عهد عبد الملك بن مروان، خامس الخلفاء الأمويين، الذي أمر ببناء قبة الصخرة، بإشراف المهندس، يزيد بن سلام، بتصاميم ماثلة للعيان، حتى اليوم. كما رصد ابن مروان، لبناء مسجد الصخرة خراج مصر، لسبع سنين، ونقش اسمه على القبة، مع تاريخ البناء (٧٢هـ). ثم توالى الخلفاء، والأمراء، فجددوا، وزخرفوا، حتى أضحى المسجد، بشهادة أحد المؤرخين الغربيين: «من أجمل الأبنية الموجودة فوق هذه البسيطة، لا بل أجمل الآثار التي خلدها التاريخ». كما أتم الوليد بن عبد الله بناء المسجد الأقصى، الذي بدأه والده، وتوالى على تجديده، وتزيينه بالنقوش، والقناديل، والسجاجيد عدد

كبير من الخلفاء، والأمراء، آخرهم الملك المغربي، محمد الخامس، الذي فرش مسجد الصخرة بالسجاد الفاخر، وفيه تلقى خطبة الجمعة[١٧].

استمرت أعمال البناء، في صحن المسجد، في عهد مروان بن عبد الملك، تبعه ابنه سليمان، الذي زار القدس، وأمر ببناء مدينة الرملة، لتكون العاصمة الإدارية، حتى يتم الحفاظ على بيت المقدس، كمدينة للعبادة، والتعليم، كذلك زار الخليفة الأموي الثامن، عمر بن عبد العزيز، مدينة القدس، وطلب من جميع ولاته زيارة القدس، وحلف يمين الطاعة والعدل، في معاملة الناس في مسجدها. وقد أشار الباحثون إلى أن سور المدينة الشمالي بقي على شكله الأصلي، خلال حكم الأمويين، بينما ثمة شك حول القسم الجنوبي من السور[١٨].

قام الخلفاء، والأمراء، والصالحون بتعمير المسجدين: الأقصى، والصخرة، فكانا من أجمل وأروع ما بناه المسلمون في حواضرهم، بل من أجمل ما خلّده الفن المعماري من آثار في العالم. وأوقفوا عليهما معظم الأراضي المحيطة ببيت المقدس. كما قاموا بإضافة العديد من المساجد، والقباب، والمحاريب، والأروقة، والمآذن، والمدارس، حتى أضحت مدينة القدس متحفًا لا مثيل له[١٩].

حفظ التاريخ لعبد الملك بن مروان أنه حوَّل الدواوين إلى العربية، ونقش الدراهم، والدنانير العربية، (الله أحد) على وجه، و(الله الصمد) على الوجه الآخر. ويذكر أنه اعتنى بفتح الطرق، وتعبيدها، وهنا ازدهرت القدس، في عهده ، وعهد ابنه الوليد، وغدت واحدة من المراكز العظيمة، في الدولة الأموية، ففضلًا على إقامتهما مباني الحرم الشريف، فإنهما أعادا بناء الأسوار المحيطة بالمدينة، وبنوا القصور والأبنية الفخمة، بجوار الزاوية الجنوبية، لسور الحرم، التي استمرت مسكونة من قبل أمراء القدس في العهود الأموية، والعباسية، والفاطمية[٢٠]. وقد تمتع اليهود، خلال الحكم الأموي، بروح التسامح، حيث سمح لهم الخلفاء الأمويون بالعودة إلى القدس[٢١].

القدس وبنو العباس

أولى العباسيون اهتمامهم بمدينة القدس، فزارها الخليفة المنصور (٧٥٤م)، وأعاد بناء المسجد الأقصى، الذي تصدَّع، إثر زلزال ألـمَّ بالمدينة[٢٢]، ثم أصابه زلزال آخر، في عهد المهدي (١٦٣هـ/ ٧٧٩م) وقد روى الطبري أن المهدي ذهب بنفسه إلى بيت المقدس، وأعاد بناء المسجد الأقصى[٢٣].

بالنسبة للعصر العباسي، بلغت القدس أوج العز والمجد، في عهد الخليفة، هارون الرشيد (٧٨٦م)، الذين عامل النصارى أحسن معاملة، فسمح للإمبراطور الفرنسي، شارلمان، بترميم الكنائس، وبناء كنيسة العذراء، حيث تقوم على آثارها كنيسة الدباغة. كما تعهد الرشيد بحماية المسيحيين، الذي يفدون إلى القدس، بقصد الزيارة. واتسعت مملكة المأمون (٨١٣م)، ابن هارون، وخليفته، وزاره عدد كبير من العلماء، وأهل الفضل، إلا أنه في عهد المعتصم بالله (أخي المأمون)، بدأ تقهقر الدولة العباسية، حيث كان المعتصم أُميًّا، وجاهلًا، وهو أول من جنَّد الأتراك، واستعان بهم في الحرب، وقطع العطاء عن العرب، ولم ينقض وقت طويل، حتى أصبح الخلفاء من بني العباس آلات بأيدي مواليهم[٢٤].

توالت سنوات الضعف على الدولة العباسية، وبعد أن بويع القاهر بالله (٩٣٢م)، وقبع الخلفاء العباسيون

في قصورهم، اقتصرت سلطتهم على الشؤون الدينية، ومكثوا على تلك الحال، إلى أن زحف هولاكو على بغداد (١٢٥٧م)، وقضى على الخلافة العباسية[٢٥].

الفاطميون والقدس

أصبحت القدس فاطمية، سنة ٩٦٦م، وكان فيها، يومئذ، عشرون ألفًا من أهلها، جلهم من الشيعة، وكانت القدس مشهورة بخصوبة تربتها، وبزيتها، وصابونها، وقطنها، وعنبها، وزبيبها، وتفاحها، وخروبها. وأما من حيث الأهمية السياسية، فقد احتلت القدس الدرجة الثانية، بعد الرملة. ومن المؤسسات الفاطمية، في بيت المقدس (البيمارستان)، وهو أول مستشفى أسس فيها، وكان ينفق عليه مبالغ طائلة، تأتي عن طريق البر والإحسان، وتقاضى أطباؤه راتبًا مقطوعًا، فضلًا على دار العلم، وهي فرع لدار الحكمة، التي أسست، في مصر، عام ١٠٠٤[٢٦].

تزايدت حدة النزاع بين اليهود، والنصارى، ولكن الفترة الذهبية لليهود جاءت مع وصول الفاطميين، ذوي الأصول المغربية للحكم. فقد كان لليهود في المغرب، جالية كبيرة، ذات مركز مرموق، دفعت الفاطميين إلى إعطاء عدد من اليهود القادمين من المغرب، والذي أعلنوا إسلامهم وظائف مهمة، كان من نتائجها السماح لليهود بالسكن، والإقامة في بيت المقدس، أعداد كبيرة، وخاصة في حارة اليهود. وفي تلك الأثناء، أوغر اليهود قلوب الحكام الفاطميين ضد النصارى، فوقعت الفتنة بينهما، كان من ذيولها إحراق كنيسة القيامة، حيث كان لليهود دور بارز في عملية الإحراق تلك. ورغم تلك الحادثة، فإن القدس ظلت مدينة مزدهرة، ويصف حالتها، آنذاك، الرحالة (ناصر خسرو)، بقوله: «القدس مدينة عظيمة جدًّا، يسكن بها عشرون ألفًا، وكثيرًا ما يحج إليها المسلمون، عندما لا تتيسر لهم وسائل الحج إلى مكة، ويشبعون بها رغباتهم الدينية، فيضحُّون الأضاحي، ويتقربون إلى الله بالصلاة والعبادة، ويصل عدد الحجيج، إلى القدس، نحو ٢٠ ألفًا»[٢٧].

الأيوبيون والقدس

احتل الفرنجة القدس، سنة ١٠٩٩م وهَبَّ صلاح الدين الأيوبي، بعد انتصاره في معركة حطين (في الشام)، إلى توجيه المعركة إلى القدس، وانتصر فيها على الفرنجة، وتم تحريرها، سنة ١١٨٧م، لكن صلاح الدين لم يعامل أعداءه بمثل ما عاملوا المسلمين، حين احتلالهم، وبقيت المدينة تحت سلطة الأيوبيين، حتى عام ١٢٤٤م، ولقد بذل الأيوبيون جهدًا معماريًّا كبيرًا، في القدس، شمال الأبنية السكنية، والأماكن المقدسة، حيث إن معظم الأعمال الحالية، في المسجد الأقصى، أنجزت خلال عهد الملك المعظم عيسى، ابن أخي صلاح الدين (١٢٣٩م)[٢٨].

لقد شرع ملوك بني أيوب في إضافة الآثار الجميلة بالمسجد الأقصى، منهم الملك العادل، سيف الدين أبو بكر، أخو السلطان صلاح الدين، وتولى الملك المظفَّر تقي الدين عمر بن شاهنشاه، كنس أرض قبة الصخرة بيده، ثم غسلها بالماء، مرارًا، ثم وأتبع الماء، بماء الورد، وطهَّر حيطانها، وغسل جدرانها، وبخَّرها. وكذلك الملك الأفضل نور الدين علي، والملك العزيز عثمان، فعلا في الأقصى أنواع من البر والخير. وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي يحمل الحجارة على سرج فرسه، وينقلها إلى موضع بناء سور المدينة. تولى ذلك بنفسه، والجماعة خواصه، والأمراء، واجتمع لذلك العلماء، والقضاة، والصوفية، والأولياء، وحواشي العسكر، والأتباع، فبنى، في أقرب مدة، ما يتعذر بناؤه في

سنين. ويوجد، إلى اليوم، في الطرف الجنوبي من ساحة الصخرة، شاهد يذكر فيه تعمير صلاح الدين الخندق، وتوالى على تجديده، وتزيينه بالنقوش والقناديل[٢٩].

لقد وضع صلاح الدين منبرًا عظيمًا، في المسجد الأقصى، كان السلطان محمود نور الدين، قد أمر بصنعه، في حلب، عندما عزم على فتح القدس، ولكن المنيَّة عاجلته عن فتحها، فقام بذلك صلاح الدين، وأحضر المنبر من حلب، وجعله في موضعه، من المسجد، وبقي فيه، حتى أحرقه الصهاينة ١٩٦٩م[٣٠]

المماليك والقدس

بموت الصالح أيوب، تولت زوجته، شجرة الدر، السلطة، في مصر، عام ١٢٥٠م، ويُعتبر هذا التاريخ بداية قيام دولة المماليك، فقد كانت شجرة الدر أقرب إلى المماليك، منها إلى الأيوبيين. ولقد شهدت القدس، في عصر المماليك، مرحلة أخرى من مراحل العمران الحضاري الإسلامي، فقد نهج المماليك نهج الأيوبيين، في العناية بمدارس العلم، وبناء المساجد، والمنافع العامة، وتركوا آثارًا كثيرة في بيت المقدس. كما أن سلاطينهم كسوا قبة الصخرة المقدسة، من الخارج، بالفسيفساء[٣١].

كما نهج المماليك نهج الأيوبيين في سماحتهم، مع أهل الكتاب، نصارى، ويهودًا، وحين زارها الرحالة اليهودي، عبودية، ١٤٨٨م، ذكر أن ٧٠ عائلة يهودية تسكنها، وأن فيها معبدًا لهم، ملاصقًا لمسجد المسلمين[٣٢].

لما قُتل قطز، أقام الأمراء، بدلًا منه، الأمير ركن الدين بيبرس (١٢٦٠م)، (الظاهر بيبرس)، الذي زار القدس، مرتين عامي ١٢٦٢م، ١٢٦٥م، ومن المنشآت، التي تمت في عهده: (دار الحديث)، بجوار التربة الجالقية، على طريق باب السلسلة، (المدرسة الأباصيرية)، تجاه الرباط المنصوري، بجوار باب الناظر. كما جدد بيبرس ما كان قد تهدم من مسجد الصخرة، وجدد، أيضًا، قبَّة السلسلة، وزخرفها، وأنشأ خانًا. ووقف بعض القرى، لينفق من ريعها على مصالح المسجد، في كل عام، والفصوص التي على الرخام، في مسجد الصخرة، من الظاهر، من آثار بيبرس (١٢٧٠م)، وهو الذي بنى على قبر موسى (عليه السلام)، عند الكثيب الأحمر، قبل أريحا، قبة ومسجدًا (١٢٦٩م)[٣٣].

في عهد الملك المنصور سيف الدين قلاوون (١٢٨٠م)، قامت بالقدس منشآت عديدة، منها: (رابط قلاوون)، ويُسمى، أيضًا، الرباط المنصوري، أنشأه عام ١٢٨٢م، ووقفه على الفقراء من زوَّار القدس؛ و(المسجد القلندري)، سنة ١٢٨٧م، الواقع في طريق دير اللاتين؛ و(الكبكية)، سنة ١٢٨٩م، يسميها الناس القبقية، وهي قبة جميلة، واقعة في تربة ماملا، وإلى الشمال الشرقي من البركة، فيها ضريح الأمير علاء الدين آيد، وغدي بن عبد الله الكبكي. وفي عهد الملك الناصر محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون، قامت منشآت أخرى، منها: رباط الكرد (١٢٩٣م)؛ المدرسة الدوادارية؛ الباب العتم (١٢٩٥م)؛ المدرسة السلامية (١٣٠٠م)؛ المدرسة الوجهية (١٣٠١م)؛ المدرسة الوصلية؛ وغيرها من المدارس[٣٤].

رصد المماليك جزءًا من ثرواتهم الضخمة، التي عادت عليهم من وراء التجارة، في رعاية مقدسات المسلمين، كما وفروا أسباب الحياة الطيبة في القدس[٣٥].

خلال الحكم المملوكي، شهدت القدس مجدًا ذهبيًّا، من الناحيتين الحضارية، والمعمارية، حيث ابرز المماليك القيمة الروحية، والدينية للمدينة، ونشطوا في بناء أعداد كبيرة من المدارس، ودور العلم، والمساجد، التي لا تزال موجودة حتى الآن. كما شهدت القدس وفود كثير من الأُسر العربية المسلمة، من المشرق والمغرب. وتشير الكثير من المصادر إلى أن مدينة بيت المقدس غدت، في عصر المماليك، مهوى أفئدة كثير من العلماء، وطلاب العلم، بجانب صبغتها الدينية، مع تعدد مدارسها، التي حظيت برعاية، وعناية السلاطين، والأمراء، والكثير من أهل البر، والذين جاؤوا إليها بالأموال، والعقارات، التي خُصصت لأعمال الخير، وكان ينفق من ريعها على العلماء، وطلبة العلم. فضلًا على تعدد مساجدها، وزواياها، التي تعقد فيها حلقات التدريس، كذلك أنجبت مدينة القدس الكثير من العلماء، الذين أثروا الحياة العلمية بنتاجهم، بل إن كبار علماء ذلك العصر، وفدوا إليها، وتلقوا جانبًا من تعليمهم. وإذا قورن هذا العدد من العلماء، أو الفقهاء بالنسبة لعدد أهالي القدس، لتأكد لنا أن العلوم الدينية، بوجه خاص، قد حظيت بسهم وافر، في تلك البيئة، التي يغلب عليها الطابع الديني، ومن الطبيعي أن ينبع ذلك الاهتمام بتلك العلوم، مما اتسمت به الحياة في مدينة القدس، من سمات دينية، جعل من هذه المدينة إحدى المراكز الخصبة للفكر الإسلامي، في ذلك العصر، وكان من أهم تلك العلوم: التصوف؛ علم القراءات؛ الأدب والنحو؛ علم التاريخ؛ الرياضيات؛ والطب[٣٦].

لعل من أهم أسباب انتعاش الحياة الثقافية، وإقامة العلماء ببيت المقدس، أن الكثير من العلماء، لم يستسيغوا الإقامة الطويلة في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، مع عظم المكانة الدينية لهما، وذلك لقسوة الحياة فيهما، وكذلك بعدهما عن مركز النشاط الحضاري، في العالم الإسلامي، في عصر المماليك. أما القدس، فبجانب ارتباطها بالوجدان الإسلامي، بكونها أولى القبلتين، وثالث الحرمين، ومسرى الرسول، فإن الحياة فيها أطيب، نسبيًّا، لاعتدال جوها، فضلًا على وقوعها داخل دائرة النشاط الحضاري للدولة الإسلامية، كذلك كان لها عشاقها الكثيرون، خاصة المشتاقين، بعد احتلال الفرنجة لها[٣٧].

في بداية العصر المملوكي، لم نجد لليهود أثرًا بالمرة، على مدى مئتي عام، وظلت نظرتهم على القدس، في هذا الوقت، محصورة في أنها مكان للحج، فحسب، ولم يكن عند اليهود أي مطامع للبقاء هناك. ولكن مع التسامح الديني، الذي ميَّز فترة المماليك، ازداد عدد اليهود خاصةً، وسمح لهم ببناء معبد خاص بهم، في القرن الخامس عشر[٣٨].

أما عن القوة العسكرية لدولة سلاطين المماليك، فقد أثبتت فعاليتها، في الدفاع عن الإسلام، والمسلمين، ضد الأخطار المحيطة بالعالم الإسلامي، كانتصار المماليك في موقعة عين جالوت؛ وإتمام ما قام به صلاح الدين، من حركة الاسترداد، فكان اهتمام المماليك الرئيسي تدعيم نظامهم العسكري، واستغلال الشعوب التابعة لهم. كما هيمنوا على الحياة الاقتصادية[٣٩].

القدس والدولة العثمانية

بعد الانتصار الحاسم، الذي حققه السلطان العثماني، سليم الأول، في معركة مرج دابق (شمال سوريا)، في آب/ أغسطس ١٥١٦م، أصبحت القدس سنجقًا من ولاية دمشق، وقد شهدت الفترة الأولى للحكم العثماني إنجازات

معمارية كبيرة، فقام سليم الأول بحل مشاكل المياه في القدس، حيث مد إليها المياه من برك سليمان، وأنشأ ثلاث برك داخل المدينة[٤٠].

حين تولى ابنه، السلطان سليمان (١٥٢٠ - ١٥٦٠م) عني بالقدس، فرمم قبة الصخرة، وأعاد تبليط المسجد الأقصى، وعمَّر جدران الحرم الشريف، وأبوابه، وأنشأ عددًا من السبل، وأصبح يعرف بخادم الحرمين، في القدس، والخليل، إضافة إلى لقب «خادم الحرمين"، في مكة، والمدينة، وأمن السلطان سليمان الطريق بين يافا، والقدس؛ حماية للحجيج، وقام بترميم سور القدس، واستمر ذلك خمس سنوات (١٥٣٦ - ١٥٤٠م)، واقتضى نفقات طائلة، وكان هدف ذلك الترميم هو حماية المدينة من الغزو الأجنبي. من جهة أخرى، أولى السلطان سليمان مشكلة المياه المزمنة عناية كبرى، فخصصت مبالغ كبيرة من المال، لبناء المنشآت المائية، وإصلاحها، وصيانتها، كالقنوات، والبرك، والأسبلة، والحمامات[٤١].

في أواسط القرن السادس عشر، أقيمت في القدس، مؤسسة مهمة، هي تكية، أو عمارة (رباط ومطبخ)، خاصكي سلطان - أنشأتها خاصكي سلطان، زوجة سليمان، وهي روسية الأصل، سنة ١٥٥١م، وسرعان ما أصبحت تلك التكية من أهم المؤسسات الخيرية، في فلسطين، وكانت التكية مجمعًا بنائيًا ضخمًا، ضم مسجدًا، وخانًا، ورباطًا، ومدرسة، ومطبخًا، وكان المطبخ يقدم، يوميًا، مئات الوجبات إلى ضيوف الرباط، والصوفية، والطلبة، والفقراء، بشكل عام[٤٢].

اشتهرت القدس، في العهد العثماني، بصناعة العلب، والأدوات المدرسية، والبضائع الدينية، من خشب الزيتون، أو من الصدف، والشموع المختلفة. وكانت هذه تباع إلى الحجاج، الذين يفدون من كل حدب وصوب؛ بقصد زيارة الأماكن المقدسة، وكانت القدس مركزًا تجاريًا مهمًا، يصدِّر القمح منها إلى إنجلترا وبعض الدول الأوروبية، فضلًا على السمسم، والصابون، وزيت الزيتون. أما البضائع، التي هي في حاجة إليها، فقد كانت تستوردها من أوروبا، عن طريق مرسيليا، وتريستا، كالبضائع الصوفية، والحريرية، والخمور، والزجاج، والخشب، وما إلى ذلك من الأثاث المنزلي، وكانت المعاملات التجارية، كلها، تجري عن طريق الأمانة، والشرف، والاتفاق الشفوي، فلا عقود، ولا صكوك، ولا سمسرة، ولا تسجيل[٤٣].

تدل سجلات المحكمة الشرعية على وجود خمسة فروع رئيسية، من الصناعة في مدينة القدس، خاصة، في بداية فترة الحكم العثماني، وهي: الصناعات الغذائية، وتتمثل في استخراج الزيوت، وطحن الحبوب، وعصر الفواكه؛ صناعات النسيج والصباغة؛ الصناعات الجلدية؛ صناعة الصابون؛ الصناعات المعدنية (الحديدية، والنحاسية)[٤٤].

أنشئت السكة الحديدية بين يافا والقدس، عام ١٨٩٢م، وأُنشئ المستشفى البلدي، الكائن غربي المدينة، عند الشيخ بدر (١٨٩١م)، وجددت عمارة السبيل، المعروفة بسبيل قايتباي (١٨٨٢م)، ومنع إدخال التليفون (١٩٠١م) واستعمل اللاسلكي، وبنيت المدرسة الرشيدية، عند باب الساهرة (١٩٠٦م)، وأُنفق على عمارة الحرم القدسي ٣٠,٠٠٠ ليرة، كما تم رصف شوارع القدس، رصفًا جديدًا (١٨٨٥م)، ومعظمه موجود إلى يومنا هذا[٤٥].

عن «الحسبة»، التي أنشأها عمر بن الخطاب، وشملت مهام المحتسبة خلال الحكم العثماني، ضبط أسعار البضائع، وتعيين أماكن البيع، واختيار التجار، ومراقبتهم، خشية الغش، كذلك تنظيم عمليات البناء، والعتالة، وإصدار تصاريح خاصة بذلك، وفي عام ١٦٧٠م، بدأت الحكومة بتسمية المحتسب بـ «الأغا»[٤٦].

استثنيت الفترة الأولى للحكم العثماني، حيث في الثلث الأخير من القرن السادس عشر، بدأت تظهر تصدعات خطيرة في كيان الدولة العثمانية، وخاصة في السنوات الأخيرة من ذلك القرن، بسبب الانتكاسات المتلاحقة، لما سببته حروب العثمانيين، مع النمسا، من خسائر فادحة. وكان لهذه التطورات آثار سلبية على القدس، حيث صاحب ذلك تدهور في الأمن العام، وخاصة على الطريق المؤدي للمدينة. ومن أجل حماية الأمن العام، والمحافظة عليه، أُنشئت عدة قلاع، وزوِّدت بالرجال، والأسلحة، بيد أن هذه الإجراءات لم تنجح، ويرجع السبب في ذلك إلى تورط الحكومة العثمانية في الحروب، ولم تتمكن من تخصيص الأموال، والقوات الكافية لذلك. فضلًا على تصادف ذلك مع توجه أعداد كبيرة من يهود أوروبا إلى فلسطين، وجزء منهم إلى القدس، وقد حاول اليهود استصدار أمر من محمد علي باشا (إبان حكمه لولاية سورية [١٨٣٢ ـ ١٨٤٠م]) للسماح لهم بشراء الأراضي الزراعية، والعقارات، وتملكها، وإنشاء بعض الصناعات الخفيفة، لكن أعضاء مجلس القدس الشريف اعترضوا على هذا الطلب، فلم يسمح محمد علي لليهود، بعد ذلك، بالبيع أو الشراء للعقارات، والأراضي الزراعية[٤٧].

شواهد على قدسية القدس لدى المسلمين[٤٨]

١ ـ **المدارس الإسلامية القديمة**، ويزيد عددها على أربعين مدرسة، يعود تاريخها إلى العهد المملوكي، وكانت من أهم وظائفها تدريس الفقه والحديث.

٢ ـ **الجوامع**، والمساجد مثل: المسجد الأقصى، جامع عمر، جامع النساء، مسجد ولي الله محارب، جامع القلعة وغيرها حوالي ٢٤ جامعًا ومسجدًا.

٣ ـ **الزوايا**، وبنيت على أضرحة الأولياء، والعظماء، وعددها ستٌّ.

٤ ـ **الخوانق**، أو الخانقاوات، وهي نوع آخر من الأبنية الدينية الإسلامية، وهي كلمة تركية، تعني بناء مخصصًا للصوفية، وعددها ثلاثة.

٥ ـ **الرُّبط**، «جمع رباط» أنشئت لتخدم غرضًا مدنيًّا عسكريًّا، والهدف من بنائها في بيت المقدس، توفير أماكن لزوار المدينة، والحجاج الوافدين إليها، كما كانت توفر التعليم الديني، والصوفي للوافدين، وكان في القدس سبعة رُبط.

٦ ـ **الأسبلة**، (جمع سبيل)، انتشرت في أنحاء مختلفة من القدس، ابتغاء السقاية، والوضوء، وتوفير المياه للسكان، وعدده: ٥ أيوبية، ١٢ مملوكية، ١٣ عثمانية.

٧ ـ **الحمامات**، هناك ٣ حمامات باقية، من ١٣ حمامًا.

٨ ـ **الخانات** (جمع خان)، وهو مكان إيواء القوافل، ورجالها من المسافرين، والتجار، والحجاج، ويوجد في القدس ١٦ خانًا.

٩ ـ **سور القدس وبواباتها**، وهو المعلم الأول، الذي يراه القادم إلى مدينة القدس، وفي السور ١١ بابًا (٣ منها مغلقة).

١٠ ـ **المقابر والترب**، دفن بها عدد من الصحابة، والتابعين، ومن أهمها مقبرة مأمن الله، ومقبرة الساهرة (للمجاهدين)، وغيرها. وكذلك مقابر المسيحيين، وأهمها مقبرة صهيون.

١١ ـ **دور الحديث والقرآن**، ومنها: القبة النحوية، دار الحديث، ودار القرآن السلامية.

١٢ ـ **الأوقاف**، في السنة العاشرة للهجرة، وصلت إلى ٩٠ وقفًا إسلاميًّا، كانت مخصصة لعشرات الأغراض الحضارية، التي جعلت من بيت المقدس حاضرة عظيمة من حواضر الإسلام.

فضلًا على ذلك، أثبت الباحثون أن القدس، على مدى التاريخ الإسلامي، هي قبلة العلماء، وطلاب العلم، والصالحين، فمدارسها – التي ربت على سبعين مدرسة – ارتادها آلاف بعد آلاف من العلماء، وطلاب العلم، وكان عدد زوايا الصوفية، ورباطاتهم أكثر من ٥٥، لا يزال الكثير منها باقيًا بناؤه. وكان، في القدس، في أواخر القرن الحادي عشر للهجرة (السابع عشر للميلاد)، ٤٠ مدرسة للفقه، ١٠ دور للقرآن الكريم، و٧ دور للحديث النبوي الشريف، وقد كانت المسافة سالكة بين بيت المقدس، وبين الأزهر الشريف، في القاهرة، والجامع الأموي، في دمشق، والحرمين، في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وأحيانًا إلى عاصمة الخلافة العثمانية، استانبول – وكانت الرحلة بين هذه المدن المتكررة، للقاء العلماء، ومدارس الفقهاء، وتحمل علوم العربية والإسلام، وأحيانًا لتقلد مناصب القضاء، أو الإفتاء، أو التدريس، التي كان يجري تنصيب المؤهلين لها من قبل السلطان، أو نوابه في مصر والشام. وقد اجتمع علم الأمصار المتفرّق، في بيت المقدس، بنقل علمائها له، أو بمرور حملته من علماء الأمصار القاصدين زيارة المسجد الأقصى، ولقاء علمائه، أو المجاورة في الأماكن الشريفة، من بيت المقدس[٤٩].

لقد جاور في بيت المقدس، حجة الإسلام الإمام الغزالي، وأقام في زاوية، فوق باب الرحمة، من أبواب المسجد الأقصى، ودرس الغزالي في المسجد الأقصى، وأتم فيه تأليف موسوعته «إحياء علوم الدين». وكان يقيم قبله، في الزاوية نفسها، قدوته في الزهد والعلم، الشيخ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي النابلسي، الذي جاء إلى بيت المقدس من الشام، كما الغزالي. كما دفن في القدس، عدد كبير من الصحابة، والتابعين، والمجاهدين، منهم الصحابي عبادة ابن الصامت الأنصاري، الصحابي شداد بن أوس، والزاهدة رابعة العدوية، وغيرهم[٥٠].

هكذا ترعرعت في القدس أهم وأكبر الحضارات، ضمت المكان، والمعالم، والأشخاص. منظومة متكاملة، كلٌّ منها أحيا الآخر، ودعمه. وقد جاءت الإمبريالية الغربية، بمطامعها، لطمس معالم هذه الحضارة، فكان الاحتلال البريطاني لفلسطين (١٩١٧م)، ثم قرار التقسيم لصالح الصهاينة (٢٩/ ١١/ ١٩٤٧)، الذي كانت على أثره نكبة ١٩٤٨، وقد ذهب البعض إلى «أسلمة» الصراع العربي ـ الصهيوني، الذي لا يعني استثناء العروبة، أو المسيحية، كما أنه لا يعني الصراع مع الأديان، وخاصة اليهودية.

أسلمة الصراع

تحدث مفكر إسلامي معاصر، عن إسلامية الصراع، ورأى أن مشكلتنا ليست مع اليهودية الدين، وإنما مع

«الصورة التلمودية لليهودية»[*]، التي نسخت، ومسخت توحيد اليهودية، وحوَّلها إلى وثنية، ومشكلتنا هي مع «اليهودية الصهيونية»، التي جردت اليهودية من «عموم الدين»، وجعلتها ذروة «العنصرية»، ومشكلتنا كذلك مع «المشروع الصهيوني»، الذي وظف إمكانات الجماعات اليهودية، في الشراكة التي دعت إليها الإمبريالية الغربية، في مرحلة زحفها الاستعماري.

رأى المفكر نفسه أن إسلامية الصراع، هي «واقع» يضيف الإمكانات الإسلامية للإمكانات الوطنية الفلسطينية، والطاقات القومية العربية، فهو يرفدها، ولا ينتقص منها، ويدعمها، ولا يضعفها.

كما أن إسلامية هذا الصراع، لا تعني تحويله إلى «صراع ديني»، ذلك أن الإسلام ينكر الصراعات الدينية، ويستنكرها، في أي ميدان من الميادين، كما أن إسلامية هذا الصراع هي في مصلحة الآخر الديني. فقد تعددت، في ظل السيادة الإسلامية على القدس، تعددية مقدسات الديانات فيها، حتى كانت الأسر المسلمة هي المؤتمنة على نظارة أوقاف الكنائس، ومفاتيحها. ولم ينعم اليهود بانتعاش حر في القدس، إلا في ظلال الإسلام «فإسلامية القدس»، لا تنفي «وطنيتها الفلسطينية»، أو «طابعها العربي»، ولا تحتكر قداستها.

للإسلام، وإنما هي المظلة الجامعة للوطنية والعروبة، وهي المؤتمنة على جعل هذه المدينة «قدسًا شريفًا»، لسائر مقدسات الديانات كلها. والأمة الإسلامية، والجهاد الإسلامي، لا يبغيان «احتكار القدس»، وإنما يسعيان لتكون «إرثًا مقدسًا لكل أصحاب المقدسات»، وبعبارة صلاح الدين الأيوبي، لريتشارد قلب الأسد: (القدس إرثنا، كما هي إرثكم)[٥١].

بقي أن نشير إلى تحرك الأوساط الدينية، خاصة الإسلامية، بشأن الاحتلال الصهيوني للقدس.

لقد أثار القرار الإسرائيلي (٢٧/ ٦/ ١٩٦٧)، بضم القدس القديمة، مع ضواحيها، إلى إسرائيل، موجة شديدة من الاحتجاج، في الأوساط الدينية، خاصة الإسلامية، فأعلنت «رابطة الحجاج المسلمين»، في أندونسيا، أن المسلمين الأندونسيين مستعدون لشن حرب مقدسة، لاستعادة المسجد الأقصى، وتحريره من السيطرة الإسرائيلية، كما صرح مفتي المسلمين، في الاتحاد السوفييتي، بأن الشباب المسلم، في الاتحاد السوفييتي، أبدى رغبته في التطوع، في صفوف المسلمين، لتحرير بيت المقدس. فيما أذاع فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر، حينئذ، الشيخ حسن مأمون، وبطريرك الكرازة المرقسية بالإسكندرية وسائر أفريقيا، قداسة البابا كيرلس السادس، بيانًا مشتركًا، موجهًا إلى أصحاب الضمائر الحرة، في العالم، أعلنا فيه أن الصهيونية العالمية عصبية جنس، لا تمت للأديان بصلة، وهي تعادي الإسلام والمسيحية، وتعتدي عليهما، وعلى مقدساتهما، وأن المسلمين والمسيحيين يستنكرون الاعتداء الغاشم، الذي وقع على البلاد العربية، وعلى القدس، وما بها من مقدسات المسلمين والمسيحيين. وقد قررت إدارة الأزهر، وبطريركية الأقباط الأرثوذكس، إرسال نسخ من هذا البيان، إلى السكرتير العام، للأمم المتحدة، وإلى رؤساء وفود الأعضاء، والمنظمات الإسلامية والمسيحية. كما قوبلت الدعوى إلى تدويل القدس (منطقة مستقلة، تحت نظام دولي)، بمعارضة شديدة، من الأوساط الإسلامية، وقد حمل لواء هذه المعارضة الأزهر الشريف، بالقاهرة، ففي شهر حزيران/ يونيو

(*) **التلمود**: الشروح الدينية والدنيوية الجامعة للتراث اليهودي. دوَّنه الحاخامات، على امتداد نحو خمسمائة عام، فعكس نفسية الشتات، وأحقاد اليهود على الأغيار، ومثل الفكرية الانعزالية للجماعات اليهودية، أي فكرية «اليهودية الأرثوذكسية».

١٩٦٧م، وجه «مجمع البحوث الإسلامية» في الأزهر، بيانًا إلى العالم الإسلامي، استنكر فيه المؤامرة الصهيونية، ضد المقدسات الإسلامية، وأهاب بالمسلمين أن يهبوا لحماية بيت المقدس، وأن يدفعوا، بكل ما أوتوا من قوة وإيمان، أطماع إسرائيل الشريرة، في الاستيلاء على مدينة القدس، ومحاولات تدويلها، تحقيقًا لمخطط الاستعمار، ونكاية بالعروبة والإسلام[٥٢].

وبعد، فإن القدس ستبقى عربية - إسلامية، حاضنة الديانات السماوية الثلاث، دون تفرقة، وأكبر دليل على عروبتها وإسلاميتها، تلك الحضارة، التي لا تزال راسخة إلى الآن، فأي ادعاء صهيوني إلى الهاوية، ولكن ذلك لن يتحقق، دون تحالف عربي ـ إسلامي قوي، ومن هنا تكون البداية السليمة!.

* * *

هوامش الفصل الثاني:

(١) د. أحمد صدقي الدجاني، **القدس وانتفاضة الأقصى وحرب العولمة**، القاهرة، مركز الإعلام العربي، ٢٠٠٢، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٢) **المصدر نفسه**، ص ٢١٠ - ٢١١.

(٣) **القدس الشريف، مدينة الإسراء والمعراج**، إنني من المسلمين، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، المنظمة الشرقية، لجنة شباب فلسطين، ١٩٧٢، ص ٦-٧.

للمزيد عن العهدة العمرية، انظر:

ـ د. سيد فرج راشد، **القدس عربية إسلامية**، ط ٢، القاهرة الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٠، ص ٤٢.

(٤) مجير الدين الحنبلي، **الأنس الجليل**، ط ١، القاهرة، ١٢٨٣هـ، ص ١٥٣-٢٢٧.

أورده : د. إسحاق موسى الحسيني، **عروبة بيت المقدس**، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، سلسلة «دراسات فلسطينية (٦١)، تموز/ يوليو ١٩٦٩، ص ٦٨.

(٥) **المصدر نفسه**، ص ٦٧ -٦٨.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٦٨ - ٦٩.

(٧) القدس الشريف، مدينة ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨-٩.

- الحسيني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥١-٥٢، ٦٩-٧١.

(٨) فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد السايح، **مكانة القدس في الإسلام**، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، الأزهر، ١٩٦٩، ص ٣٣-٣٤، ٣٧

(٩) عبد الرحمن أبو عرفة، **القدس العتيقة، تشكيل جديد للمدينة**، ط ١، عمان، منشورات دار الكرمل، سلسلة «دراسات صامد الاقتصادي»، ١٩٨٦، ص ٢٠.

(١٠) الأديبة مها فرح الخوري، جورج ناصيف، أولغا حجّار، **مسلمون ومسيحيون معًا من أجل القدس**، (انظر: د. محمد سليم العوا، الندوة الدراسية: القدس إسلاميًا، ص ١٥٢-١٦١).

(١١) للمزيد ، انظر: الحسيني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٧-٨٣.

(١٢) راشد، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠.

(١٣) القدس الشريف، مدينة ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٦.

(١٤) عارف باشا العارف، **تاريخ القدس**، ط ٢، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥١.

ـ القدس، **أمانة في عنق كل عربي ومسلم**، حقائق ومعلومات، إصدار لجنة يوم القدس، **الندوة السابعة** - عمان، ٥-٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٦، (انظر: بلدية القدس وأمانتها في الماضي والحاضر، ص ١٧-٢٠).

(١٥) أبو عرفة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٧-٢٨.

(١٦) العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٠-٥١.

(١٧) أبو عرفة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨.

- الحسيني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٣. وللمزيد عن وصف قبة الصخرة، انظر:

- العوا، **مصدر سبق ذكره**.

- راشد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٤٤.

- تحسين يقين، القدس المحتلة عبير الروح (استطلاع)، **العربي** (الكويت)، القدس مرارة الابتلاع، آيار/ مايو ٢٠٠٧، ص ٣٦ - ٥١.

(١٨) أبو عرفة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨ - ٢٩.

(١٩) الحسيني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٢.

(٢٠) أحمد صدقي الدجاني، **بيت المقدس وثائق شاهدة على التسامح الديني أبان الحكم الإسلامي**، ط ١، غزة، مركز القدس للدراسات والإعلام والنشر، ٢٠٠٣، ص ١٨.

(٢١) أبو عرفة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨.

(٢١) **المصدر نفسه**، ص ٢٨-٢٩.

(٢٣) العوا، **مصدر سبق ذكره**.

(٢٤) العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٥.

- السايح، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٨-١٩.

(٢٥) العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٧.

للمزيد عن العصر العباسي، انظر: **المصدر نفسه**، ص ٥٤-٥٨.

(٢٦) **المصدر نفسه**، ص ٦٢-٦٣.

(٢٧) أبو عرفة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨-٢٩.

(٢٨) **المصدر نفسه**، ص ٢٩-٣٠

- السايح، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩.

(٢٩) الحسيني، **مصدر سبق ذكره**، ص ٥٤.

(٣٠) العوا، **مصدر سبق ذكره**.

(٣١) الدجاني، بيت المقدس ... ، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٧-٢٨.

- راشد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٥-١٩٧.

(٣٢) **المصادر نفسها**، الصفحات نفسها.

(٣٣) العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ٨٧-٨٨.

(٣٤) للمزيد، انظر: **المصدر نفسه**، ص ٨٧-١٠٠.

(٣٥) د. علي السيد علي، **القدس في العصر المملوكي**، ط ١، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٦، ص ٣٢.

(٣٦) **المصدر نفسه**، ص ١٢١-١٥٢.

(٣٧) **المصدر نفسه**، ص ١٢١-١٢٢.

(٣٨) أبو عرفة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٩-٣٠.

- راشد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٩٥-١٩٧.

(٣٩) علي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٥، ٧٣-٧٤.

(٤٠) أبو عرفة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠.

(٤١) لواء د. محمد صلاح سالم، **القدس، الحق ... التاريخ ... والمستقبل**، ط ١، القاهرة، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ٢٠٠٣، ص ٦٣.

- الدجاني، بيت المقدس ...، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨-٢٩.

(٤٢) سالم، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٣.

(٤٣) العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٤-١٢٥.

(٤٤) سالم، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٤.

(٤٥) العارف، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٢٠.

(٤٦) القدس، أمانة ...، **مصدر سبق ذكره**.

(٤٧) سالم، **مصدر سبق ذكره**، ص ٦٥-٦٦.

- راشد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٠٠.

- أبو عرفة، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠-٣١.

(٤٨) للمزيد، انظر:

- القدس، أمانة ...، **مصدر سبق ذكره**، (انظر: مكانة القدس الحضارية والدينية، ص ١٣-١٤).

- العارف - **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٧٨-٣٠٢.

- العوا، **مصدر سبق ذكره**.

- د. أحمد الصاوي، **القدس مقدسات لا تمحى وآثار تتحدى**، ط١، الهرم، مركز الإعلام العربي، ٢٠٠٣، ص ٣٠-١٨٠.

(٤٩) العوا، **مصدر سبق ذكره**.

(٥٠) **المصدر نفسه**.

- الحسيني - **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٣.

(٥١) د. محمد عمارة، **إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين**، ط١، سلسلة «في التنوير الإسلامي» (١٣)، القاهرة، نهضة مصر، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٨، ص ٦-٧، ص ٢٣-٢٩.

(٥٢) ممدوح توفيق القاضي، **مستقبل القدس**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٧، ص ١٠٦-١٠٩، ص ١١٣-١١٤.